



لو كتبت مقالتي هذه للتعليق على اتفاق إيران والخمسة + 1، ولما تهب «عاصفة الحزم»، لكتبت مقالة محبطه تعبر عن رأي سعودي محبط، ربما تكون أيضاً استسلامية تتدثر بواقعية الأمر الواقع، أو غاضبة ناقمة من ضعفنا نتيجة لخبطه الأولويات فانصرفنا عن التهديدات الحقيقية إلى خلافات تافهة.

ولكنني أكتبها الآن بينما أستمع للعميد أحمد عسيري الناطق باسم القوات المسلحة السعودية التي تقود تحالف «عاصفة الحزم» الهادفة إلى تقليم أظافر إيران في المنطقة، وهو يقول بثقة: «إذا كان هناك مستشارون إيرانيون أو من «حزب الله» مع الحوثيين فسيلقون المصير نفسه». إذا لا مكان في اليمن الآن – وبالتالي غيرها من بلاد العرب لاحفاً – لمستشارين إيرانيين أو من يتبعونها من مليشيا يقتلون ويذبحون ويفرضون رؤيتهم الطائفية على مستقبل الأمة العربية، وبالتالي لم أعد أشعر باهتمام شديد إن توصل الأميركيون والأوربيون إلى اتفاق مع إيران يعطيها الحق بالاستمرار بمشروعها النووي «السلمي» ويرفع عنها العقوبات كلها أو جزئياً أم لم يتتفقوا.

فالذي يشغلني بصفتي مواطناً سعودياً هو هذا التمدد الإيراني، الذي يهدد أمننا الإقليمي والم المحلي، ويغير هويتنا بالقوة والتخييف، ويصادم تطلعات شعوب المنطقة إلى السلام والحرية والحق في الاختيار. لقد فشلت إيران في كل المبادرات التي أعلنتها ثورتها الإسلامية بأنها مع المستضعفين والوحدة الإسلامية والحرية. في سوريا وقفوا مع ديكاتور، وفي العراق اصطفوا طائفياً، وفي اليمن كذلك وخططوا لانقلاب يفرض فصيلاً بالقوة على كل اختيارات الشعب. المؤلم أنهم بدوا، وطوال عقد كامل، ماضين من نجاح إلى آخر، والعالم يعجب بالناجحين والمنتصررين حتى لو لم يحبهم، كهذا بدت تعليقات بعض المحللين السياسيين الأميركيين وهم يدعون إلى صفحة جديدة مع إيران.

إنها القوة الصاعدة، التي تقول وتفعل، ويمكن الاعتماد عليها في الحرب على «داعش» والإرهاب، وإعادة الاستقرار إلى المنطقة. لا يزال في أميركا من يرى المنطقة بمنظارين فقط: محطة النفط، وأمن إسرائيل، فكان هذان هما محرك التفاوض مع الإيرانيين في مفاوضات جنيف والآن لوزان، يرون في رفع العقوبات عن إيران ما يحولها إلى شريك اقتصادي، تفرك الشركات الأميركية أيديها وهي تقرأ دراسات الفرص الاقتصادية المقبلة بعد خروج هذا الجندي الاقتصادي الإيراني من قمّق العقوبات، أما إسرائيل فإن الشروط التي ستضعها الولايات المتحدة على المشروع النووي الإيراني كافية لجعله سلبياً، مع

بقاء خيار العقاب العسكري لإسرائيل والولايات المتحدة لو ثبت لها أن إيران تخاللها وتمضي في مشروع سري لتصنيع قنبلة نووية. التطوير بات مسألة من الماضي، إذ يجمع الخبراء أن إيران تمتلك اليوم المعرفة والتقنية الكافية. أما العرب وأهل الخليج، يسأل الأميركي، فأين سينذهبون؟ لا خيار لديهم غير قبول الأمر الواقع والاستمرار في تصدير مزيد من النفط وشراء مزيد من الأسلحة!

لقد تجاهل المزاج الأميركي كل أسباب القلق السعودي من التمدد الإيراني. كانوا يتعاملون معنا بمنطق «هذه مشكلاتكم الطائفية القديمة التي لم تستطعوا حسمها خلال ألف عام، فلا تشغلوна بها». لم يلتقطوا بشكل جاد إلى كل الانتهاكات الإيرانية لمبادئ القانون الدولي وقواعد حسن الجوار، لم يفهموا تغلغل الإيرانيين في الأجهزة الأمنية العراقية حتى أصبحت تدار من طهران مباشرة، ولا دخول آلاف الإيرانيين وميليشيات طائفية يجلبونها حتى من أفغانستان إلى سوريا لقتل سوريين يريدون الحرية والخلاص من الديكتاتور، لم يتحركوا لمنع «حزب الله» من أن يرسل رجاله وأسلحته إلى سوريا، وهو وفق أي تعريف قانوني لا يمكن إلا أن يكون قوة عسكرية مارقة خارجة على سلطة الدولة اللبنانية.

لم يوقفوا طائرة إيرانية واحدة يعلمون أنها محملة بأحدث أنواع الأسلحة وهي تتجه إلى سوريا، حيث منطقة صراع أعلنوا غير مرة منفردين أو من خلال الأمم المتحدة بضرورة حظر الأسلحة عنها، وكذلك إلى اليمن، حيث السفن تنقل الأسلحة، وطائرات إلى صناعة تحمل مستشارين ومدربي، وربما مزيداً من المتعصبين الشيعة الذين احترفوا القتل الطائفي في العراق وسوريا. تعلم الأميركي أن كل هذا يهدد الأمن القومي لحليفتها السعودية، ولكنها ببساطة اكتفت بسحب جنودها من قاعدة العند القريبة من عدن بعدما بدا أن الحوثيين على وشك أن يطبقوا عليها، ومضوا بعيداً بلا مبالاة عجيبة.

قبل نحو العامين، كنت في إسطنبول مشاركاً في إحدى دورات المنتدى الاقتصادي العالمي، في حلقة حوار عن التهديدات الأمنية في المنطقة. قلت، إن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية سقوط عشرات الآلاف في سوريا، بقدر لا يقل عن روسيا والصين اللتين صوتتا بالفيتو أكثر من مرة لمنع التدخل هناك، فأميركا أيضاً تمنع السعودية وتركيا وقطر من توفير أسلحة نوعية للمعارضة السورية، أهمها الصواريخ الحرارية التي كان يمكن أن تحد من قدرة الطيران السوري الذي استمرأ، بعدما أمن العقاب، قصف المدنيين في المناطق المحررة لأهداف عقابية وليس عسكرية. بدا كلامي مزعجاً لباحث الأميركي مشارك متخصص في الشؤون الدفاعية وصديق مفترض للملكة، فقال بحدة «أنتم ليكم طائرات إف 16 وسلاحكم الجوي أقوى بمراحل من القوات الجوية السورية، لم لا تأخذون زمام المبادرة؟».

سكتُ على مضمض، ذلك أنني كنت معتقداً أننا لا نستطيع فعل ذلك من دون غطاء دولي، وتحديداً الأميركي، بل حصلت على معلومات وقتها تؤكد من الأميركيين السعوديين وقطر من إرسال شحنة صواريخ «مان باد» الحرارية للسوريين كان يمكن أن تغير موازين المعركة وتتنفذ أرواحاً كثيرة.

من الواضح أن هذا العجز هو خبر من ماض سحيق، فقد دفعتنا «عاصفة الحزم»، وخلال 10 أيام فقط ومعنا كل المنطقة، إلى مستقبل مختلف متقدم بأعوام عدة.

بالتالي لم يعد مهماً أوقعوا أم لم يوقعوا، سالمو إيران أم حاربوها، المهم أن المملكة استعادت الزمام لنفسها وللمنطقة، فبدت ماضية في مشروعين مهمين: الأول سحب البساط بالكامل من تحت أرجل إيران في حيزنا العربي، والثاني لا يقل أهمية، إذ أكد لي مصدر مطلع أن سياسة المملكة حيال الطاقة النووية ستختلف تماماً فور توقيع أي عقد مع إيران، فكل ما ستحصل عليه من الدول الكبرى من منشآت وتقنيات والمقدار المسموح به لتخصيب اليورانيوم وعدد أجهزة الطرد المركزي ستعتبره المملكة حقاً لها أيضاً تسعى من خلاله لتطوير برنامجها النووي.

إنه توازن القوى الذي يضمن السلام من حماقات مغامر يريد إعادة صوغ التاريخ والجغرافيا.

الحياة اللندنية

المصادر: